دلالة الفطرة والحس علي الرب سبحانه

تمهيدٌ:

حَفَل القرآنُ الكريمُ بالأدِلَّةِ على ربوبيَّةِ اللهِ، التي تبيِّنُ عَظَمتَه، وتفَرُّدَه بالخَلْقِ والمُلْكِ والتَّدبيرِ.
والأدِلَّةُ على ذلك تعَزِّزُ الفِطْرةَ، وتَزيدُها يَقينًا واستِقامةً، كما يحتاجُ إليها أيضًا من تعرَّضت فِطرتُه لأحوالٍ مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، فتأتي هذه الأدِلَّةُ لتَنبيهِ الفِطرةِ، وتقويمِ اعوِجاجِها.
قال ابنُ تَيميَّةَ: (الإقرارُ بالخالقِ وكَمالِه كما يكونُ فِطْريًّا ضروريًّا في حَقِّ من سَلِمَت فِطْرتُه، وإن كان مع ذلك تَقومُ عليه الأدِلَّةُ الكثيرةُ، وقد يحتاجُ إلى الأدلَّةِ عليه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، عند تغيُّرِ الفِطرةِ، وأحوالٍ تَعرِضُ لها)[1] .
وممَّا يُبَيِّنُ مدى أثَرِ القُرآنِ في إحياءِ الفِطرةِ ومُعالجتِها من ظُلُماتِ الشِّركِ والكُفرِ: حديثُ جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرَأُ في المغرِبِ بالطُّورِ، فلمَّا بلغ هذه الآيةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:35-37]، كاد قلبي أن يطيرَ)[2] . وفي روايةٍ: (وذلك أوَّلَ ما وَقَر الإيمانُ في قَلْبي)[3] .
وقد دلَّ على ربوبيَّتِهِ سُبْحانَه: الفِطرةُ، والشَّرعُ، والحِسُّ، والعَقْلُ.

---

(1) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (73/6).

(2) أخرجه البخاري (4854).

(3) أخرجه البخاري (4552).

المَبحثُ الأوَّلُ: دَلالةُ الفِطرةِ

قال الخليلُ: (الفِطرةُ: التي طُبِعَت عليها الخليقةُ من الدِّينِ، فطَرَهم اللهُ على معرفتِه برُبوبيَّتِه)[1] .

وقال السَّعديُّ: (الفِطرةُ هي الخِلْقةُ التي خَلَق اللهُ عبادَه عليها، وجعَلَهم مفطورينَ عليها؛ على محبَّةِ الخَيرِ وإيثارِه، وكراهةِ الشَّرِّ ودَفْعِه، وفَطَرهم حُنَفاءَ مستعدِّين لقَبولِ الخَيرِ والإخلاصِ للهِ، والتقرُّبِ إليه، وجَعَل تعالى شرائعَ الفِطرةِ نَوعَينِ: أحَدُهما: يُطَهِّرُ القَلْبَ والرُّوحَ، وهو الإيمانُ باللهِ، وتوابعُه مِن خَوْفِه ورَجائِه، ومحبَّتِه والإنابةِ إليه؛ قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:30-31] ، فهذه تزكِّي النَّفسَ، وتطَهِّرُ القَلبَ وتنَمِّيه، وتُذهِبُ عنه الآفاتِ الرَّذيلةَ، وتحَلِّيه بالأخلاقِ الجَميلةِ، وهي كلُّها تَرجِعُ إلى أُصولِ الإيمانِ وأعمالِ القُلوبِ.

والنَّوعُ الثَّاني: ما يعودُ إلى تطهيرِ الظَّاهِرِ ونَظافتِه، ودَفْعِ الأوساخِ والأقذارِ عنه)[2].

ودليلُ الفِطْرةِ راسِخٌ في نُفوسِ البَشَرِ بما قد لا يَحتاجُ الإنسانُ معه إلى استِدلالٍ آخَرَ، ومِمَّا يدُلُّ على ذلك:

1- لُجوءُ الإنسانِ وفَزَعُه إلى خالِقِه سُبحانَه عِندَ الشِّدَّةِ والحاجةِ، سَواءٌ كان هذا الإنسانُ مُوحِّدًا أو مُشرِكًا.

فإنَّ بني آدمَ جميعًا يَشعُرونَ بحاجتِهم وفَقْرِهم، وهذا الشُّعورُ أمرٌ ضَروريٌّ فِطريٌّ، فالفَقْرُ وَصفٌ ذاتيٌّ لهم، فإذا ألَمَّت بالإنسانِ حتى المُشرِكِ مصيبةٌ قد تؤدِّي به إلى الهلاكِ، فَزِع إلى خالِقِه سُبحانَه، والتجأ إليه وَحْدَه دونَ ما سِواه، وشُعورُ هذا الإنسانِ بحاجتِه وفَقْرِه إلى رَبِّه تابعٌ لشُعورِه بوُجودِه واقرارِه بذلك[3] .

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: 12].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67].

2- ورودُ التَّكليفِ بتوحيدِ العبادةِ أوَّلًا

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].
فلو لم يَكُنِ الإقرارُ باللهِ تعالى وبرُبوبيَّتِه فِطْريًّا لَدَعاهم إليه أوَّلًا؛ إذ الأمرُ بتَوحيدِه في عِبادتِه فَرعٌ عن الإقرارِ به وبرُبوبيَّتِه.
ولو لم يكُنِ الإقرارُ باللهِ تعالى وبرُبوبيَّتِه فِطْريًّا، لساغ لمعارِضي الرُّسُلِ عند أمْرِهم بعبادةِ اللهِ وَحْدَه أن يقولوا: نحن لم نَعرِفْه أصلًا فكيف يأمُرُنا؟! فعدَمُ حُدوثِ ذلك دليلٌ على أنَّ المَعرِفةَ برُبوبيَّةِ اللهِ كانت مُستقِرَّةً في فِطَرِهم[4] .

3- إلزامُ المُشرِكينَ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ ليُقِرُّوا بتوحيدِ الأُلوهيَّةِ
فإنَّ المُشرِكينَ لو كانوا غيرَ مقِرِّين برُبوبيَّةِ الله تعالى، لَما ألزَمَهم اللهُ بها؛ كي يُثبِتَ لهم وجوبَ الإقرارِ بإفرادِه في العبادةِ، وقد قال الرُّسُلُ لقَومِهم: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: 10].
قال ابنُ تَيميَّةَ: (فدَلَّ ذلك على أنَّه ليس في اللهِ شَكٌّ عند الخَلْقِ المخاطَبينَ، وهذا يبيِّنُ أنَّهم مفطورون على الإقرارِ)[5] .
وقال الكمالُ بنُ الهمامِ -بعد أن ذكَرَ كُفْرَ أهلِ الدِّياناتِ الباطِلةِ-: (اعترف الكُلُّ بأنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ، والألوهيَّةَ الأصليَّةَ للهِ تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فهذا كان في فِطرتِهم؛ ولذا كان المسموعُ من الأنبياءِ دَعوةَ الخَلْقِ إلى التوحيدِ شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، دون أن يَشهَدوا أنَّ للخَلْقِ إلهًا)[6].
4- التَّصريحُ بأنَّ الفِطْرةَ مُقتضيَةٌ للإقرارِ بالرَّبِّ وتوحيدِه وحُبِّه
قال اللهُ تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].
وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يمَجِّسانِه))[7].
فقد فَطَر اللهُ كُلَّ إنسانٍ على توحيدِه، بحيث يكونُ ذلك أصلًا يُولَدُ عليه كلُّ مَولودٍ؛ فالفِطْرةُ هي الإسلامُ الذي أصلُه توحيدُ اللهِ بالإرادةِ والمحبَّةِ، وأمَّا الأديانُ الباطِلةُ فهي مخالِفةٌ للفِطرةِ، وانحرافٌ عن الأصلِ الذي هو الإسلامُ[8] .
قال ابنُ تَيميَّةَ: (أكثَرُ النَّاسِ على أنَّ الإقرارَ بالصَّانِعِ ضَروريٌّ فِطريٌّ، وذلك أنَّ اضطرارَ النُّفوسِ إلى ذلك أعظَمُ من اضطِرارِها إلى ما لا تتعلَّقُ به حاجتُها، ألَا ترى

أنَّ النَّاسَ يَعرِفونَ مِن أحوالِ مَن تتعلَّقُ به مَنافِعُهم ومضارُّهم؛ كوُلاةِ أُمورِهم، ومماليكِهم، وأصدقائِهم، وأعدائِهم: ما لا يَعلَمونَه من أحوالِ من لا يَرجُونَه ولا يَخافُونَه؟ ولا شَيءَ أحوَجُ إلى شيءٍ من المخلوقِ إلى خالِقِه، فهم يحتاجُونَ إليه من جِهةِ رُبوبيَّتِه؛ إذ كان هو الذي خلَقَهم، وهو الذي يأتيهم بالمنافع، ويدفَعُ عنهم المضارَّ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: 53])[9].

---

(1) يُنظر: ((العين)) (418/7).

(2) يُنظر: ((بهجة قلوب الأبرار)) (ص: 51).

(3) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (129/3) (532/8).

(4) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (440/8، 491).

(5) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) (441/8).

(6))) يُنظر: ((المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة)) (ص: 7).

(7) أخرجه البخاري (4775) واللفظ له، ومسلم (2658).

(8) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (186/1)، ((ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة)) لعبد الله القرني (ص: 163).

(9) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) (135/3).

المَبحَثُ الثَّاني: دَلالةُ الحِسِّ

إنَّ الإنسانَ حينَ يدعو اللهَ عزَّ وجلَّ فيَستجيبُ دُعاءَه، فهذه دَلالةٌ حِسِّيَّةٌ تَشهَدُ على وُجودِ اللهِ، وانفرادِه بتَدبيرِ الكَونِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: 41].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 83 – 90] .

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَومَ الجُمُعَةِ مِن بَابٍ كانَ وِجَاهَ المِنْبَرِ، ورَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَائِمًا، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ: هَلَكَتِ المَوَاشِي، وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنا، قالَ: فَرَفَعَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَيْهِ، فَقالَ:" **اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا** " قالَ أَنَسٌ: ولَا واللَّهِ ما نَرَى في السَّمَاءِ مِن سَحَابٍ ولَا قَزَعَةً ولَا شيئًا، وما بيْنَنَا وبيْنَ سَلْعٍ مِن بَيْتٍ ولَا دَارٍ، فَطَلَعَتْ مِن ورَائِهِ

سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قالَ: واللَّهِ ما رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا...[1].

---

(1) أخرجه البخاري (1013) واللَّفظُ له، ومسلم (897).